# الإبر المسمومة

بقلم: فائز حسن العوض

بعد خمسة عشر عاما أو يزيد من وفاة أبي، سمحت لي أمّي بدخول غرفته لأوّل مرّة.. بعد رحيله المبكّر، وطوال سنوات غيابه، كانت تغلق غرفته بالمفتاح دون أن تسمح لمخلوق، ولا حتّي أنا ابنه بدخولها. ظنّت أنّ الوقت لم يحن بعد لذلك. وكانت تتحجّج بذهاب رائحته وعطره إذا دخلها الهواء مرّة وإلى الأبد.

كان كتاب الشعر ل(فؤاد مطر) على الطّاولة، ولم يفارق أبي أبداً.. وهو الوحيد من بين كتبه الذي سمح له بالنّوم على صدره !، وكان بيده حين وفاته، حيث نزعوه منه لحظة الغسل، فأخذته أمي ووضعته على الطاولة عند الصّفحة التى كان يقرأها.

مثلما لشفة الإبريق المنسيّ طعم الأرض يعلو مع الماء، أسمع صوت أبي حين يقرأ لينساب شعر نيرودا.. رائحة أبي تضمّخ المكان؛ وعلى الطّاولة غليونه ولفافة تبغ (الأمفورا) رطبة كأنما جيء بها للتّوّ من دكان التّبغ، وعلى طاولة المكتب وخلفها مكتبة الأبنوس، وعليها منحوتة طائر صغير يفتح فمه لأمّه، وهي

تقسّم له ما في جوفها، صرت أسمع صوتهما حتّى اليوم وأتذكّر أبي. وفي الرّكن البعيد للطّاولة لوح شمع طويل بلون البحر الصافي أو لون السّماء الصّافية الشّفافة وحساسيته، وحرصه ألاّ يزعج أحداً.. كان يحرص على وضع خيط اللّهب فوق لوح الشّمع بهدوء، كما كان يتحرّك على أمشاط أصابعه إذا جنّ اللّيل .. كنت معجباً بحزمة الشّيب بصدغيه كخيط دخان أبيض لسيجارة، يرفض أن يغادر شعره بهدوء . كانت أمّي تقدّسه عشقاً، وتقول إنّه نبيّ جاء يعلّم الناس رسالة!.. أذكر أنّهم حين حملوا النّعش، وهمّوا بإخراجه من الباب كادت روح أمي تخرج مع الجثّة !، ظننت أنّ كلّ نسائنا يفعلن الشّيء ذاته.. وأذكر أنّ الباب كان صغيرًا لخروج النّعش وسريره الخشبيّ؛ ولأنّني كنت أمسك بالعنقريب، ولم أك أوده أن يرحل عنّا!. فما كان من حملة النّعش إلاّ أن لفّوه ببرش السّعف الأبيض، وحملوه خارجًا ثمّ أخرجوا سرير الخشب – العنقريب– ووضعوه على الأرض، ثمّ وضعوا الجثمان عليه بعد أن قرأوا الفاتحة جميعًا، قبل أن يدور حول ناصية الدّار وللمرّة الأخيرة، نظرت لأمّي، وهي ترتجف مثل إنسان شقّوا صدره، ونزعوا قلبه دون مخدّر!

لا شكّ أنّ فقده وقع عليها كالمصيبة التى تحلّ بالجسد كلّه.
أذكر أنّ ربطة العنق التى كانت تربطها له أمّي وتجيد ربطها، بعد أن علّمها كيفية ربطها على الطّريقة الأمريكية والإنجليزية والمصرية، ولم أر أجمل منها على عنق رجل، خاصّة تلك الحمراء علي قميصه الأبيض. أو تلك البنّية اللّون حيث يرتدي قميصه (البيج)، بدت أمّي سعيدة، وهي تقوم بربطها، وهو مستسلم كطفل صغير. كما حرصت على اختيار قمصانه كلّ يوم ساعة خروجه، ولمعت له أحذيته قبل خروجه بسعادة، وأحبّ منها تلك الأشياء ، وأعتقدها وهي تربط له ربطة العنق تلك كأنما تربطه إليها !! كانت تفكّها عدة مرات ثم تعيد ربطها دونما سبب ظاهر.
مرّة، طلبت منه أن يربطها لي بعد أن ينزعها عن عنقه، فلم يحلّها وإنما سحب عقدتها للخلف، ونقلها لي لبضع ثوان ثمّ أعادها لصدره وهو يقول لي : "أمك تزعل.!)

أذكر وأنا صغير أذكر أنّي ملت للصخب وكثرة الضحك وهو عكسي ... جادّ، ويبدو حزيناً في دواخله، ورغم سعادته بضحكي كان يقول لي في بعض الأحيان:

خذ كلّ نصيبك من الدّنيا في الضحك، فغدًا تغمر قلبك الأحزان، وقد صدق. أوّل حزن غمر قلبي هو رحيله المبكّر . رغم أن أمي ردّدت دائماً بأنّه موجود بيننا بروحه، يزرونا كلّ أسبوع وتعرف ذلك بطريقة ما! وصورته المعلّقة تذكّرني به لذا لم ننسه أبداً... كان رجلاً طقوسياً بكلّ معنى الكلمة، للقراءة عنده طقوس، لا يشرب وهو يقرأ، ولا يقرأ وهو مستلقٍ على سريره. يقول:

للقراءة قدسيّة .. كالصّلاة تماماً، ولذا فهو يقرأ بكامل ملابسه وهو جالس إلى الطاولة في أبهي أناقته كأنّه مدعوّ لحفل عرس. ظلّت أمّي طيلة الخمسة عشرَ عاماً التى تلت رحيله تفعل الأمور ذاتها.. تقوم بتنظيف مكتبه ثمّ تربط ربطة العنق على مشبك الملابس، كما فعلت سابقاً، وأحياناً تقول للمشبك لاتفكّها، وإلاّ قطعت عنقك!.. أراها تفعل ذلك وأنا أتلصّص عليها من خصاص الباب، وظللت أنا أحادث صورته المعلّقة على جدران الصالة، وأطلب منها كلّ ما يخطر على بالي فأجدها آخر اليوم.. عرفت أنّ أمّي تلبّي طلباتي مثل (بابا نويل)، يأتي بالهدايا للفقراء ليلة عيد الميلاد.شكرت صورته أمامها ، كنّا سعداء بذلك.

عرفت هذا بعد أن كبرت لأنّي طلبت من صورته بعض الأشياء ولم

أجدها آخر النهار.. عرفت ذلك بعد رحيل أمّي.

ساعة وضعوه على السرير الخشبيّ للغسل، أراد جارنا عثمان قطع ربطة العنق بمقص طويل حادّ من الأستيل، لكنّ بكائي وتوسّلاتي التي تذيب الصّخر عطفًا، جعلته يغيّر رأية، فنحّى المقصّ جانباً وحلّ ربطتها وسحبها بهدوء من العنق. كان جسده رخواً ليناً ساعتها، وكأنّه نائم، ثمّ فكّ أزرار القميص وسحبه، بعد أن أخرج اليدين، ثمّ سحبه من تحت الجسد ووضع القميص على ذراعي الممدودة، ووضع فوقه ربطة العنق الحمراء تحمل ذكرى أبي وعمي عثمان بصنعته تلك التى أحفظها له كجميل لن أنساه له ماحييت.

حين مرضت أمّي وشعرت بدنوّ أجلها قالت لي: أبوك ترك لك خطابًا علي الطّاولة، اقرأه لوحدك، ثم دسّت مفتاح غرفته في يدي، ونظرت لصورة أبي بابتسامة نحيلة. علت ثغرها تلك الابتسامة الشّاحبة وقالت :

الحمد لله. أكملت رسالتي ورسالة أبيك.

برحيلها أصبحت يتيمًا ووحيدًا. كنت أعمل لأعول نفسي. وواصلت دراستي في الجامعة حتّى التخرّج. لم أجرؤ يومًا علي فتح

غرفة أبي وقراءة خطابه، إلاّ بعد تخرّجي.. دخلت غرفته وأنا أشعر بأني لن أغادرها كما دخلتها، وأنّ معجزة بانتظاري، تجنبتها سنوات طويلة وأخيراً جرؤت.

على طاولة المكتب وضعت الورقة مطبّقة بشكل جيّد، حقيقة تمنّيت ألاّ أفتحها لولا أنّها ستظلّ تنتظرني ما حييت، بعدما بقيت الوحيد في البيت، اللهمّ اجعله خيرًا! وكأنّي أنزع سدادة جرّة ظلت في أعماق البحر، وغمرتها الطّحالب، ليخرج الجنّ الحبيس.. لقد ولّى زمان المعجزات، وإن كان جنًّا محبوسًا فسيرجوني أن أعيده للجرّة، بعد أن يكتشف تفاهة معجزات الجنّ مقارنة بمعجزات البشر الآن!

فتحت الورقة بأصابع مرتجفة ومرتعشة خوفا، .. الخطّ الأنيق نفسه.. خطّه ... والعبارات الأنيقة والتّهذيب له.. أتذكر حين كنت أقول لك غدًا تغمر قلبك الأحزان؟! كنت أقولها في صدق وإشفاق ممّا سيصيبك!.. سقطت الورقة من يدي إلاّ أنّ قوّة أكبر مني أمرتني بمتابعه القراءة، فما قد حدث لن تغيرّه قراءتك للورقة أو عدمها، فالله وحده يحفظك، واعلم أنّ الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يضروك بشي لن يضروك.. "رفعت الأقلام

وجفّت الصحف". والخير فيما يختاره الله امض امض. كنت بكلّ صدق أتمنّى أن تكون ابني من صلبي،ولكن ابن من أنا إذاً ؟!
لولا معرفتي بأنّ أبي لا يكذب لما صدّقته مهما أقسم ..
بإمكاني أن أذهب بسرّي وسرّك للقبر وأتحمّل وحدي عذاب الضّمير، وحتّى عذاب الآخرة، مع علمي بأن الله غفور رحيم .
لكنّ شيئًا في داخلي قال لي عشت حياتك بالصّدق، فاختمها بالصّدق مهما كانت النتيجة. لقد عرضت الأمر على أمّك، فوافقت. كن رجلاً وواجه مصيبتك بشجاعة، وابحث عن والدك الحقيقي، فأنا أعرفه حتّى لا تحقد عليه، فكلّنا بشر وكلنّا خطّاء.
افعل الخير للنّاس فهم سذّج بسطاء يعصون الله خالقهم . اللهمّ قد بلغت فاشهد. لقد صدق حدسي حين قال لي غدًا تغمر قلبك الأحزان؛ لأنها غمرته كمطر منتصف الخريف ويسمّيها أهلنا- الطّرفة الباكية- لأنها ما تنفكّ أن تتوقف عن البكاء ...
مطر كالأسلاك والخيوط الحريريّة الناعمة، كالإبر وهي تنقر الجسد برؤوسها الحادّة، كما تنقر الفراخ أواني الأكل المسمّاة بالأكّالات، لكنّها بعد أن تنغرس في الجسد تغوص فيه حتّى إذا ما دخلته لا تكتفي بذلك، بل تبدأ رحله السّباحة لتصل القلب ذات يوم.